

بقلم : الدكتور أحمد قدرى

يمثل هذا الكتاب عن «مصر منذ عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة» اختياراً موفقاً جديداً من جانب الأستاذ مختار السويفى، فى سلسلة ترجماته لبعض عيون أدب علم المصريات، والتي تستهدف رسالة ثقافية نبيلة، لدفع الوعي التاريخى للقارئ العام نحو آفاق رحبة، تسهم فى تأكيد هويتنا القومية المصرية والعربية، بقدر ماتسهم فى تعرفنا على جوهر علمى التاريخ والآثار باعتبارها العمود الفقرى فى أية موجة ثقافية ناهضة لأية أمة من الأمم.

وهذا الكتاب الجديد يستمد أهميته من التركيز على حقبة ما قبل التاريخ فى مصر القديمة، منذ نهاية الدهر الحجري القديم الأعلى، عندما كانت مجموعات الصيادين البدائيين يعتمدون فى غذائهم على جمع جذور وحبوب وثمرات النباتات البرية، وعلى صيد الحيوانات التي كانت تزنخر بها الأحراش والغابات والمستنقعات التي امتدت فى ذلك الدهر منذ عشرات الآلاف من السنين، فى شمال الحزام الصحراوى الأفريقى الراهن، بل وفى معظم أنحاء وجنوب الشرق الأدنى والجزيرة العربية، أثناء العصر الذى امتد فيه الغطاء الجليدى غامراً معظم أوراسيا وأمريكا الشمالية، بينما سادت الأمطار الغزيرة فى المناطق التي تحولت إلى صحراوات موحشة فى مصر وشمال افريقيا، وذلك عند انقطاع العصر المطير وحدوث التحول إلى عصر الجفاف الجديد الذى بدأ منذ نيف وعشرة آلاف من الأعوام.

لقد انحدرت حيوانات الصيد فراراً من هذا الجفاف . واتجه بعضها إلى جنوب الحزام الصحراوي الجديد، واتجه بعضها الآخر إلى الأحراش والمستنقعات ووظف النيل بحثاً عن مصادر جديدة للطعام والمياه، وبالتالي فقد انحدر وراءها أولئك الصيادون القدامى إلى تلك المناطق الأخيرة، حيث تحققت الظروف النباتية والحيوانية بل والانثروبولوجية لانبثاق أعظم ثورة فى تأريخ الإنسان، وهى الثورة الزراعية أو «النيولوثية»، التى أدت إلى ارتباط الإنسان المزارع الجديد بالأرض الأم ارتباطاً لا انفصام منه، بعد اكتشاف الزراعة وتدجين الحيوان، بكل ما ترتب على ذلك من تشكّل وظهور أنظمة إنسانية اجتماعية واقتصادية وروحية جديدة، وظهور الملكية والتنظيم الاجتماعى والفن والحياة الدينية على حد سواء .

هذه الحقبة التطورية التى مرت بوادى النيل الأدنى، كشفت بجلاء عن عناصر الجوهر الحقيقى لقدرة الإنسان على التقدم، وعن ظروف نشأة الحضارات وارتقائها نحو أنماط جديدة أكثر ثراء من سابقتها فى كافة المضامين الثقافية العامة، وعلى وجه الخصوص فى الفن والاجتماع والرؤى والممارسات الروحية .

ومن بوتقة تلك الرحلة الطويلة التى بدأت فى دهر ما قبل التأريخ فى مصر، انبثقت الحضارة المصرية المتميزة وصعدت إلى مستوى الحضارات العليا للإنسان فى العالم القديم، وذلك عندما اكتشفت الكتابة، وبدأت عصور التاريخ المكتوب، وعندما توحد القطران مصر العليا والسفلى فى وحدة سياسية ظلّت السمة الجوهريّة لحياة مصر السياسية منذ بداية العصر الفرعونى وحتى عصرنا الراهن .

لقد عاشت أولى جماعات الثورة الزراعية فى تاريخ الإنسان على أرض وادى النيل فى مصر. وتشير الحفائر الحديثة خاصة تلك التى قامت بها إحدى بعثات الجيولوجيا بقيادة الأستاذ ويندورف وأستاذ الانثروبولوجى بالجامعات الأمريكية والأستاذ جروبر من جامعة كولونيا بألمانيا الغربية، إلى أن التقديرات التقليدية السابقة التى وضعت هذه الثورة الحاسمة فى التاريخ الحضارى للإنسان فى حدود الألف السادس قبل الميلاد، يمكن الآن - فى ضوء الموجودات الحفرية الجديدة التى اكتشفت فى بعض المواقع «النيولوثية» كممنطقة الكوتانية بأسوان ومنطقة الجلف الكبير بالصحراء الغربية - دفعها إلى قرابة الألف التاسع أو العاشر قبل

الميلاد، مما يؤيد ويرجح النظرية التي ترى أن الثورة الزراعية بدأت أولاً، وقبل أى موقع آخر فى الشرق الأدنى، على أرض وادى النيل الشمالى، وعلى حافات الصحراوات التي تطل عليه.

والحق أن المرحلة التاريخية التي درجنا على إطلاق إسم «الدولة القديمة» عليها، تعد أزهى عصور الحضارة المصرية وأعظمها تعبيراً عن عناصر الشموخ والجبروت فى معطياتها الفنية، خاصة المعمارية منها. وهى مرحلة اعتبرها الاستاذ ثوبى القمى الحقيقية للحضارة المصرية القديمة قبل أن تدرج بعد ذلك - فى تقدير فيلسوف التاريخ الشهير- فى طريق الضعف والتدهور البطء وحتى نهايتها الفعلية.

والأستاذ سيريل ألدريد مؤلف هذا الكتاب له مؤلفات قيمة عديدة فى حقل «علم المصريات». وقد أثار ضجة لم تنزل أصداؤها تتردد إلى الآن فى عمله الشهير عن «أخناتون» فرعون التوحيد المعروف وعصره. ويعتبر كتابه الراهن عملاً موجزاً، بالرغم من قيمته العلمية العالية التي حرص على وضعها فى قالب يمكن أن ينفذ إلى القارئ العام والقارئ غير المتخصص. ويتميز هذا الكتاب أيضاً بذلك التحليل العلمى الرائع للعناصر الفنية فى الرسم والنحت والعمارة التي انبثقت براعمها المبكرة فى عصور ما قبل التاريخ المتأخرة وفى عصر ما قبل الأسرات، والتي تطورت وارتقت هذا الارتقاء الرفيع الفذ فى العصر العتيق [عصر الأسرتين الأولى والثانية] ثم فى عصر الأسرات الأربع التالية التي تشكل تاريخ الدولة القديمة أو عصر بناء الأهرام كما يطلق عليه أحياناً.

ولاجدال فى أن الفن المصرى القديم يعتبر أعظم عطاءات الحضارة المصرية القديمة. وهو العطاء الأكثر تميزاً فى مسارها عبر آلاف السنين. ولذلك فإن الأعمال الفنية التي احتواها هذا الكتاب، والتي تتضمن أعمالاً بارزة فى فنون الرسم والنحت والعمارة، تعتبر من المعالم والسمات الأساسية فى تأريخ الفنون الإنسانية بصفة عامة، فضلاً عن دورها فى تعريف القارئ العربى ببعض أهم روائع هذا العطاء الفنى العظيم الذى سجلته الرسوم والنقوش الجميلة الملونة لمناظر وموضوعات الحياة اليومية التي وجدت على جدران مقابر النبلاء فى عصر الدولة

القديمة، أو وجدت على سطوح الأواني التى خلفتها العصور السابقة على عصر الأسرات، أو التى تمثلها تلك الأهرام الجبارة التى وُسِّدَت فيها موميאות ملوك أسرات الدولة القديمة باعتبارها أماكن الخلود والحياة السرمدية هؤلاء العواهل المقدسين بعد انتقالهم إلى الدار الآخرة.

وقد لمست بنفسى مدى الجهد الذى بذله الأستاذ المترجم فى تبسيط المادة المترجمة تبسيطاً يقتضيه الحال، واختزال الجفاف المفرق فى العلمية أحياناً، وصياغته فى أسلوب رقيق سهل وواضح. وقد انتهج الأستاذ المترجم هذا النهج متوخياً تعميم الاستفادة لأعرض قطاعات ممكنة من قراء اللغة العربية. وذلك دون أى انتقاص من القيمة العلمية البحتة للمادة المقدمة فى المؤلف الأصيل.

كذلك فقد عمد الأستاذ المترجم أيضاً إلى تعميق المادة التاريخية والمعلومات «الكرونولوجية» المتعلقة بالملوك الذين ورد ذكرهم بالكتاب والوقائع والأحداث التى صاحبت عصورهم، وذلك لتوضيح المادة المؤلفة التى ركزت أساساً على الفن المصرى القديم بعناصره المختلفة فى العصور التى تناوفا هذا الكتاب ابتداء من عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية عصر الدولة القديمة.

وقد استجاب الأستاذ المترجم مشكوراً لاقتراحى بتوظيف ثقافته التاريخية والأثرية الواسعة فى مساعدة القارئ غير المتخصص فى استيعاب موضوعات هذا الكتاب، وذلك بوضع هذه الموضوعات داخل إطارها التاريخى العام وإبراز خلفياتها الثقافية.

وحتى يحقق الأستاذ المترجم هذه النتيجة المرجوة، قام بإعداد أكثر من مائة هامش يتضمن كل منها موضوعاً موجزاً يتناول التعريف بالملوك والأسرات الحاكمة، وأهم المنجزات المرتبطة بهم، بالإضافة إلى توضيح الأسماء والمواقع الحالية للأماكن والمدن التى ورد ذكرها بهذا العمل. خاصة وأن معظمها وردت بأسمائها اليونانية القديمة التى لصقت بها منذ العصر اليونانى / الرومانى. فضلاً عن الكثير من المعلومات التاريخية والأثرية والتوضيحية الأخرى التى تلقى أضواءً مبهرة ساطعة على المادة العلمية التى وردت بالعمل الأصيل.

وليس هناك أدنى شك في أن هذا العمل الصعب الذى أضافه الأستاذ المترجم يعتبر إثراءً للعمل الأصيل من جانب، ويجعله فى متناول القارئ العام من جانب آخر، ويحقق الاستفادة المستهدفة لدى كل المتعطشين من شبابنا ومواطنينا فى مصر والعالم العربى للتعرف على جانب هام ومؤثر من عطاءات حضارة مصر القديمة، التى يحلو للكثيرين من العلماء والمؤرخين من مصريين وأجانب أن يسمونها أم الحضارات جميعا.

دكتور: أحمد قدرى .

مقدمة الطبعة الثانية

ليس سراً نخفيه لأنه أمر شديد الوضوح ، فالكتب التى تناولت تاريخ وآثار الحضارة المصرية القديمة والتى كتبها العلماء والمؤرخون الأجانب أكثر بكثير جداً من الكتب التى ألفها فى هذا الموضوع علماء مصريون أو عرب .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر وحتى الآن ، صدرت عدة آلاف من الكتب والدراسات الموسوعية التى تناولت هذا الموضوع الذى أصبح أثيراً لدى عشرات من العلماء والمؤرخين الانجليز والفرنسيين والامريكيين والألمان والروس والايطاليين والسويسريين وغيرهم من الجنسيات الأوربية الأخرى .. بل وظهرت عناصر علم جديد هو علم الإحييتولوجى أو علم المصريات الذى أدى إلى إعادة النظر فى تاريخ الحضارة الإنسانية بصفة عامة فى ضوء ما ظهر فى مصر من اكتشافات أثرية وما أجرى على هذه الآثار من دراسات علمية .

وما لاجدال فيه أن النتائج العلمية التى استخلصت من هذه الدراسات قد وضعت أسس — أو قامت بتطوير — علوم إنسانية أخرى كعلوم الانثروبولوجى والاثنولوجى والتاريخ الاجتماعى والتاريخ الحضارى والدراسات الثقافية المقارنة . كما أدت أيضاً إلى انقلاب فى المسلمات التاريخية التى كانت مستقرة من قبل على أن الحضارة اليونانية هى البداية الرئيسية للحضارات الإنسانية ، وأصبح من المسلم به لدى علماء التاريخ والآثار ، أن الحضارة المصرية القديمة هى أم الحضارات .. وفى مصر القديمة بدأ كل شىء .. وتوالى ظهور الأدلة التاريخية

والأثرية على أن المصريين القدماء هم الذين وضعوا أسس الكتابة بالحروف الأجدية، وأسس العلوم الطبيعية، وأسس العمارة والفن والأدب والدين، وقواعد ومبادئ الأخلاق والسلوك الإنسانى والتنظيم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للدولة.. وهم الذين ابتدعوا أيضاً المبادئ والأسس التى قام عليها علم الاستراتيجية وعلم التكتيك وفنون الحرب وتنظيم الجيوش الكبرى، ووضع خطط المعارك الحربية التى مازالت حتى الآن محل دراسة باكاديميات الحرب الحديثة فى كثير من دول العالم.

ومنذ سنوات طويلة وأنا أشعر بالأسف الشديد لأن الغالبية العظمى لهذه الآلاف المؤلفة من الكتب والمراجع والدراسات الموسوعية التى تتناول التاريخ المصرى القديم والحضارة المصرية القديمة أصبحت متاحة الآن لمعظم شعوب العالم فى مشارق الأرض ومغاربها لأنها مؤلفة فى الأصل أو مترجمة إلى مختلف لغات العالم الحية مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية والاسبانية والايطالية واليابانية وغيرها من اللغات الأخرى. ويتمثل أسفى هنا بأن هذه الكتب الواسعة الانتشار المطبوعة على أفخر أنواع الورق المصقول وبأعلى مستويات الطباعة وتنسيق الألوان، ليست متاحة بالقدر الكافى لقراء العربية — وخصوصاً المصريين — وهم أولى الناس بقراءتها.

ولذلك فقد كنت أحلم بيوم يقوم فيه المترجمون المتخصصون من ذوى الثقافة التاريخية والأثرية وهم كثيرون بترجمة هذه الكتب والمراجع الأجنبية إلى اللغة العربية.. ودعوت إلى ذلك بالحاح فى كل وسائل النشر التى أتيت لى بقدر الامكان.

وفى أواخر عام ١٩٨٤ كنت قد انتهيت من ترجمة كتاب «المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية ١٥٧٠ ق م — ١٠٨٧ ق م» واعداده للطبع، وهو رسالة الدكتوراه التى قدمها الدكتور أحمد قدرى للحصول على درجته العلمية من جامعة بودابست. واقترحت عليه أن تقوم مطبعة هيئة الآثار المصرية بإصدار الطبعة العربية لما لها من امكانيات فنية جيدة وقدرتها على اصدار الكتب إلى جانب ماتصدرة من المطبوعات والنشرات السياحية والأثرية الأخرى.

وفى ذلك الوقت، كانت هيئة الآثار المصرية تعيش عصرها الذهبي القصير تحت رئاسة الدكتور أحمد قدرى، وكان رحمه الله ذا نفس عفيفة ومشاعر حساسة إلى حد كبير، فخشى أن يقال أنه استغل منصبه وسخر مطبعة الهيئة فى طبع كتابه .. وحاولت جاهداً أن أخفف من وطأة تلك الحساسية البالغة على أساس أن هيئة الآثار ملزمة - طبقاً للخطة التى كان ينتهجها فى ادارتها - بنشر الوعى الثقافى التاريخى والأثرى على أوسع نطاق. وأن فى امكان الهيئة أن تصدر المزيد من الكتب الأخرى وتطرحها فى المكتبات ولدى موزعى الكتب لتصل إلى جماهير القراء بسعر منخفض معقول .

واقترحت عليه أن تدعو هيئة الآثار كافة المتخصصين القادرين على الترجمة سواء من الدكاترة والاساتذة العاملين فيها أو من خارجها، إلى التقدم بترجماتهم أو بمؤلفاتهم لتقوم الهيئة بطبعتها ونشرها طبقاً لخطة مدروسة تهدف أساساً إلى نشر الثقافة التاريخية والأثرية على أوسع نطاق مستطاع .

ولم تمض سوى أيام قليلة حتى قرر مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية البدء فوراً فى طبع ونشر سلسلة من الكتب المتخصصة فى التاريخ المصرى بكل أزمنته وعصوره، والآثار المصرية بكافة أزمنتها وعصورها. وهكذا تبنّت الهيئة هذا المشروع العظيم وأسمته «نحو وعى حضار معاصر. سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية. مشروع المائة كتاب» وذلك على أساس خطة عملية تنفذ خلال عشر سنوات .

وكان لى شرف الاشتراك فى هذا المشروع بترجمة كتابين هما: «المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية» من تأليف الدكتور أحمد قدرى ومراجعة الدكتور جمال الدين مختار، و«فن الرسم عند قدماء المصريين» من تأليف وليم هـ. بيك ومراجعة الدكتور أحمد قدرى ويعتبر هذا الكتاب أول مرجع يصدر باللغة العربية فى موضوعه .

واذكر هنا بكل الفخر والاعزاز ان الدكتور أحمد قدرى رحمه الله أخذ يشجعنى بل ويلج على إلحاحاً أن أترجم الكثير من الكتب والمراجع التى تتناول أدب المصريين وتاريخ الحضارة والآثار المصرية، ووعدنى بأنه سيقوم بمراجعتها بنفسه وتقديمها إلى جمهور القراء ..

كذلك اذكر بكل الأسف أن هذا المشروع العظيم الذى تبنته هيئة الآثار المصرية قد توقف تماماً بعد فترة رئاسة الدكتور أحمد قدرى للهيئة، ولم يصدر منه سوى أحد عشر كتاباً هى كل ما استطاعت الهيئة تنفيذه بالرغم من المعوقات وأحباب المعوقين.

وبكل الإيمان بأن الله تعالى يبارك العمل الجيد، فقد قبلت «الدار المصرية اللبنانية» اقتراحى بإصدار سلسلة من الكتب والمراجع المؤلفة والمترجمة تتناول تاريخ وحضارة والآثار المصرية فى مختلف العصور الفرعونية والإسلامية. وبدأنا بإصدار كتاب «مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية» [ثلاث طبعات] ثم الكتاب الوثائقى «مراكب خوفو.. حقائق لا أكاذيب» [طبعتان] ثم هذا الكتاب الذى نتشرف بتقديم الطبعة الثانية منه إلى القارىء الكريم «الحضارة المصرية. من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة».

ولاجدال فى أن إعادة طبع هذه الإصدارات من الكتب المتخصصة تتضمن مؤشراً واضحاً لمدى اقبال القارىء العربى على هذه النوعيات الثقافية ومدى تشوقه إلى قراءة تاريخ الآباء والأجداد القريبين منهم والبعيدين. كما يدل أيضاً على مدى حاجة المكتبة العربية بصفة عامة إلى المزيد والمزيد من كتب التاريخ والآثار. وهذا ما نحاول تحقيقه بعون من الله العلى القدير.

مختار السوفى

كورنيش النيل - القاهرة - أغسطس ١٩٩١.

قال صديق لى يشغل منصباً علمياً كبيراً بمركز تسجيل الآثار بالزمالك حين علم بأنى أقوم بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية :

— أنك تحتاج إلى أكثر من صبر أيوب .. فن المعروف أن سيريل ألدريد مؤلف هذا الكتاب يكتب «البلاغة» الانجليزية بأسلوب صعب بالغ التعقيد شديد التركيز، وهو يكشف معلوماته عن علم المصريات والحضارة المصرية تكثيفاً قد يصعب فهمه على العلماء المتخصصين فى التاريخ المصرى القديم والعلماء المتخصصين فى تاريخ الفنون .. كما أنه يكتب وكأنه يخاطب علماء يعرفون الكثير عن الموضوعات التى يتناولها .. أو كأنه قد أغفل القارئ العام الذى يريد أن يستزيد من المعرفة .

والحقيقة أنى لم أندعش لقول صديقى هذا، ولكنى أدركت فى تلك اللحظة فعلاً قدر المعاناة والصعوبات الشديدة التى واجهتها اثناء ترجمة هذا الكتاب .. فقد كانت تصادفنى بعض كلمات صعبة تجعلنى اضطر إلى اللجوء إلى عدة قواميس حتى أصل إلى معناها المقصود فى الجملة التى وضعت فيها .. كما كانت تصادفنى كلمات أخرى أكثر صعوبة لأجد معناها المقصود فى القواميس العادية فاضطر إلى البحث عنها فى القواميس المتخصصة .. وحتى بعد التغلب على صعوبة الكلمات المفردة، خصوصاً الكلمات والمصطلحات اللاتينية التى يولع المؤلف باستخدامها، كانت تبقى بعد ذلك صعوبة تركيب الجمل بداخل الفقرة الواحدة، حيث ينتهج المؤلف بقدره فائقة منهجاً رقيقاً فى صياغة اسلوبه . وبطبيعة الحال فإن هذه القدرة تعتبر ميزة فى جانبه ولا تعتبر عيباً يحاسب عليه .

ولاشك عندى فى أن قارىء أصل هذا الكتاب فى لغته الانجليزية الأصلية ، سيجد متعة رفيعة المستوى فى تتبع المئات من الأفكار والمعلومات والموضوعات الصغيرة المركزة التى تتناول ابداعات الفنانين المصريين الأوائل ، سواء فى تلك الفترات الغامضة التى سبقت عصور التاريخ المعروف ، أو فى تلك الفترات التى تسيدت فيها الحضارة المصرية فوق قمم الابداع الإنسانى فى جميع أنحاء العالم ، وفوق كل الحضارات القديمة التى عاصرت المصريين حين كانوا يعيشون فى ظل نظام الدولة القديمة منذ مايقرب من خمسة آلاف عام .

وقد بذلت كل جهد ممكن فى نقل هذا الإحساس بالمتعة إلى قارىء هذا الكتاب بعد نقله إلى اللغة العربية .

وتتجلى هذه المتعة أوضح ما تكون حين يتناول الكتاب تلك التحليلات الرائعة لفنون المصريين الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ ، وهى عصور مازالت حتى الآن تثير الكثير من الجدل بين أئمة المؤرخين وعلماء الآثار ، ويعتبر البحث فيها من أكثر البحوث صعوبة من الناحية العلمية ، حيث تتداخل مبادئ وقواعد عدة علوم فى الموضوع الواحد . ولا بد من إبراز الجوانب الجغرافية والجيولوجية والبيئية والأنثروبولوجية والإثنولوجية والتاريخية والأثرية وكافة الجهود العلمية الأخرى التى قد يقتضيها البحث فى سبيل الوصول إلى نتيجة حاسمة فى بعض الأحيان ، وتقريبية فى أحيان كثيرة . كما قد يقتضى الأمر استخدام التحليلات الكيميائية والطيفية والاشعاعية ، واستخدام أحدث أجهزة التحليل التى تعتمد على الكربون ١٤ المشع والبوتاسيوم أرجون . وبالإضافة إلى هذا كله فلا بد أن يتسلح الباحث فى مثل هذه المجالات بخلفية ثقافية واسعة تشمل المعرفة التامة والمتعمقة بتاريخ حضارات العالم القديم بصفة عامة ، وبتاريخ الحضارة المصرية على وجه الخصوص ، والإلمام التام بنوعية وطبيعة الحضارات الإنسانية التى سادت فى كافة أنحاء المساحة التى تشغلها مصر منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ ، سواء فى صحاريها ووديانها وتلالها وجبالها وواحاتها وأحراشها وسواحل بحارها وأراضى دلتاها وضياف نيلها .

وحتى السنوات الأخيرة من القرن الماضى ، وبالتحديد حتى عام ١٨٩٤م ، لم تكن المعلومات المعروفة الموثوق بها عن تاريخ مصر القديم ، ترجع إلى عصر أقدم

من عصر الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ووالد الملك خوفو صاحب الهرم الأكبر، أو إلى عصر الملك زوسر صاحب الهرم المدرج بسقارة إلى أقصى تقدير.

وبالرغم من وجود بعض القوائم بأسماء الملوك الذين سبقوا الملك سنفرو في اعتلاء عرش مصر خلال الأسرات الثلاث التي جلس ملوكها على نفس العرش، بما فيهم اسم الملك مينا الذى وحد القطرين وبدأ عصر الأسرات، إلا أن معظم المؤرخين وعلماء الآثار حتى ذلك الوقت، كانوا يظنون أن اساء هؤلاء الملوك كانت أسماء أسطورية للملوك أسطوريين لم يتركوا آثاراً مادية تدل على وجودهم وجوداً حقيقياً واقعياً. كما نظر هؤلاء العلماء أيضاً إلى دلائل الأحداث التي عرفت عن هؤلاء الملوك باعتبارها شذرات من حكايات ضئيلة القيمة لا تشكل في مجموعها عناصر البحث التاريخي السليم. وعلى هذا الأساس لم يكن لدينا أية فكرة أو تصور لتلك الحضارة العظيمة الرفيعة المستوى التي قامت في مصر قبل عصر الأهرام بآلاف السنين.

ولكن هذا الوهم الخاطيء تبدد كله في السنوات الأخيرة من القرن الماضي نتيجة لتلك الاكتشافات الأثرية الرائعة التي قام بها مجموعة من علماء الآثار المصرية يتصدرهم العالم بترى الذى أجرى بحوثه وحفائره فى منطقة أبيدوس [العراة المدفونة]. والعالم دى مورجان الذى أجرى بحوثه وحفائره فى منطقة نقادة. والعالم كويل الذى أجرى بحوثه وحفائره فى منطقة الكاب.. فقد عثر هؤلاء العلماء على آثار وأطلال مجموعة من المعابد والمقابر التي يرجع تاريخها إلى عصور هؤلاء الملوك الأوائل الذين كان يظن أنهم ملوك اسطوريون.

فى عام ١٨٩٤م عثر كويل فى حفائره التي أجراها فى منطقة الكاب، على رأس الصولجان الخاص بالملك «سيلك» أو الملك العقرب وهو الإسم الذى اشتهر به، كما عثر على لوح الاردواز الشهير الخاص بالملك «نعرمر». كما كشف النقاب أيضاً عن آثار أخرى للملكين آخرين من ملوك الأسرة الثانية هما «نخع سخم» و«نخع سخموى».

وبعد ذلك بنحو عامين اكتشف دى مورجان فى منطقة نقادة آثار مقبرة عظيمة ظن فى البداية أنها مقبرة الملك «حورعحا» من ملوك الأسرة الأولى، ثم أوضحت الأبحاث فيما بعد أنها مقبرة الملكة «نيت حتب» أم الملك «حورعحا».

وفى تلك السنوات أيضاً رزئت البلاد بأحد قراصنة الآثار، وكان إيطالياً
إسمه «أميلينو».. جاء إلى مصر بتمويل من بعض كبار هواة جمع التحف
والآثار المصرية القديمة. وأجرى حفائره العشوائية فى منطقة «أم الجعاب» القريبة
من أبيدوس. وعثر على مجموعة من بقايا وأطلال مقابر ملوك الأسرتين الأولى
والثانية، أخذ ينقب فيها بلا دراية ولا حرص، وبطريقة تقرب من التدمير، بل
وقام فعلاً بتدمير وتحطيم مجموعة كبيرة من التحف والأواني الحجرية المتكررة حتى
يرفع قيمة وثمان ما يحتفظ به.

وكانت النتيجة المباشرة لهذه الاكتشافات هى تسليط الضوء على مراحل
البيانات الأولى لتاريخ مصر القديمة. وهو أمر أدى بدوره إلى تركيز الضوء أيضاً
على الآثار البديعة المبهرة التى خلفها المصريون الأوائل الذين عاشوا فى مختلف
المناطق المصرية فى عصور ما قبل الأسرات وعصور ما قبل التاريخ.

وخلال النصف الأول من القرن العشرين تواصلت الاكتشافات الأثرية
لمخلفات كل هذه العصور ولكن ببطء شديد، وربما يرجع ذلك إلى قلة الاعتمادات
المالية التى كانت تمول هذه الكشوف، أو ربما إلى قلة ماعثر عليه من آثار
مكتوبة. وحتى بالنسبة لهذه الآثار الأخيرة، فقد كانت الكتابات غامضة إلى حد
كبير وأشبه بالطلاسم التى تستعصى على الحل أو الفهم. وبالرغم من ذلك فقد
اشترك فى تلك الكشوف وماترتب عليها من تحليلات ودراسات تاريخية ونظرية
مجموعة لا حصر لها من أشهر أساتذة التاريخ وعلماء الآثار من مصريين وأجانب.

أما البحوث والحفائر الأثرية التى أجريت فى النصف الثانى من القرن
العشرين، فقد تميزت بالكثرة كما تميزت باستخدام الوسائل والأجهزة الحديثة
التي أسفرت عنها النهضة العلمية والتكنولوجية التى حدثت فى أعقاب الحرب
العالمية الثانية.

وقد يكون من الصعب، بل ومن المستحيل، أن نقدم حصراً بإحصاء كل
البعثات العلمية التى أوفدها الجامعات والمعاهد ومتاحف الآثار ومتاحف الفنون
الجميلة من كافة أنحاء العالم، والتي استهدفت البحث عن مخلفات وآثار الإنسان
المصرى الذى عاش فى عصور ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات. إلا أننا مع ذلك

نشير إلى أن تلك البعثات قد بذلت جهوداً جبارة، وجابت الفيافي وصحارى مصر الواسعة، سعياً وراء تلك المعرفة .

ولعل أهم المواقع التى فحصتها تلك البعثات وعثرت فيها على دلائل مادية تنبئ عن وجود وحياء الجماعات الإنسانية الأولى التى عاشت فى المساحة المصرية قبل أن يبرز للتاريخ فجر، تتمثل فى مواقع وأماكن يبدو أغلبها الآن كصحارى قاحلة تكاد أن تكون خالية من مظاهر الحياة تماماً .. وأشهر هذه المواقع كان فى منطقة السلسلة بالقرب من كوم امبو، وواحة كركر، وجبل القطران قرب بحيرة قارون بالفيوم، وممر إدفو/ مرسى علم بالصحراء الشرقية، وتلال ووديان النوبة قبل اختفائها تحت مياه بحيرة السد العالى، ومنطقة بيرطرافوى التى تبعد بنحو ٤٠٠ كيلومتر جنوب غرب الواحات الخارجة بالصحراء الغربية .

هذا بالإضافة إلى العديد من الحفائر الأثرية التى أجريت فى فترات متباعدة وعلى مدى طويل بمناطق صحراء العباسية بشمال شرق القاهرة، وصحراء المعادى وطرة وحلوان بجنوب القاهرة، وميدوم والجزرة بمحافظة بنى سويف، والبدارى ودير تاسا بمحافظة أسيوط، وأبيدوس بمحافظة سوهاج، والعمرة ونقادة والجبلين بمحافظة قنا، ومرمدا بنى سلامة بجنوبى الدلتا .. وغير ذلك من الأماكن والمواقع الأخرى التى مازالت تسفر بين حين وآخر عن مفاجآت أثرية تثرى معارفنا عن الحضارة المصرية فى تلك العصور السحيقة فى القدم .

وقد نشطت هذه البعثات العلمية والكشفية خلال عقدي الستينات والسبعينات . وقد بلغ الجانب النظرى من هذا النشاط أوجه فى سنة ١٩٧٤ بانعقاد ندوة علمية تحت إشراف منظمة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة، قدمت فيها الكثير من البحوث العلمية التى يدور موضوعها الأساسى عن «سكان مصر القديمة» . ومن أهم النتائج التى أسفرت عنها تلك الندوة أن فترة ما قبل التاريخ فى مصر، أخذت تحظى باهتمام الكثير من علماء الانثروبولوجى والمؤرخين وعلماء الآثار .. ولذلك فن المتوقع ظهور المزيد من الكتب والأبحاث الجديدة التى تتناول دراسة مراحل البدايات الأولى لتلك الحضارة العريقة التى سادت فى

وادي النيل الأدنى، وتسيدت على حضارات العالم القديم التي عاصرتها، بذلك الرسوخ والطابع الذاتي الذي يميزها، وذلك الرقى والمستوى الرفيع الذي بلغته في كافة أنشطة الجماعات الإنسانية الأولى في مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد والفن والعمارة والفكر والعقيدة.

وسوف يلاحظ القارئ أن مؤلف هذا الكتاب لم يغفل ذكر بعض آراء العلماء من أنصار حضارات ميزوبوتاميا [بلاد بين النهرين] وإيران وسوريا وفلسطين. حيث رأى بعضهم أن الزراعة قد نشأت في تلك الحضارات أولاً ثم انتقلت منها إلى مصر. وهذه المسألة تعتبر من الناحية العلمية مسألة خلافية مازالت تثير جدلاً بين العلماء لم يقطع فيه برأى حاسم.

ومع ذلك فإن علماء كثيرين ممن تدارسوا عملياً مختلف البيئات المصرية لتتبع خطوات الإنسان المصري في العصرين الحجريين القديم والحديث، قدموا عدداً من الأدلة والشواهد المادية على معرفة المصريين الأوائل بسبل الزراعة وإنبات الحبوب. وأن هؤلاء الأوائل قد سبقوا الكثيرين من أصحاب الحضارات المعاصرة لهم في الانتقال من مرحلة جمع الطعام إلى مرحلة انتاج الطعام.

هذا بالإضافة إلى أن علماء كثيرين آخرين يرون أن معرفة الإنسان للزراعة، كانت في الأصل معرفة فطرية لم تكن تتطلب سوى ملاحظة ظواهر الإنبات الطبيعية، حيث كان النبات يخرج من بطن الأرض تلقائياً في أعقاب سقوط البذور والحبوب البرية بفعل الرياح أو بطريق المصادفة على الأرض الرخوة أو المبتلة. وهذه المعرفة الفطرية قد تحدث عملاً أمام الجماعات الإنسانية التي كانت تعيش في بيئات تتوافر فيها الظروف الملائمة لهذا الإنبات الطبيعي.

ويرى أغلب الباحثين من علماء الإكولوجي [البيئة] أن ضفاف النيل في أرض مصر، كانت البيئة المناسبة لمعرفة الزراعة لأول مرة. وذلك تأسيساً على مناسبة الظروف المناخية التي كانت سائدة بمصر، بالإضافة إلى الدور الذي أداه تغاقب الفيضان السنوي المنتظم لنهر النيل وما ينتج عنه عادة من تخصيب التربة تخصيباً يجعلها صالحة لإنبات البذور بأقل قدر من المجهود. كما يرى هؤلاء الباحثون أيضاً أن الأدوات التي استعملها المصريون الأوائل في مباشرة العمليات

الزراعية تعتبر أنضج من ناحية الصناعة من تلك الأدوات التي صنعتها الجماعات الإنسانية الأخرى فى حضارات وديان الأنهار الكبرى التى كانت تعاصر الحضارة المصرية القديمة من الناحية الزمنية .

كذلك فسوف يلاحظ القارىء أن المؤلف ذكر آراء بعض العلماء الذين تشيعوا إلى فكرة انتقال بعض النماذج الفنية من بلاد ما بين النهرين إلى مصر، سواء فى عصر ما قبل الأسرات، أو فى العصر العتيق الذى شغلته الأسرتان الأولى والثانية . وأشار المؤلف إلى نفس النماذج الفنية التى أشار إليها العلماء من أنصار حضارة ميزوبوتاميا [بين النهرين] وهى على وجه التحديد :

(أ) — النموذج الخاص بتصوير البطل الاسطورى الذى يقوم باخضاع أسدين، أو يقوم بالتفريق بين أسدين . وهو نموذج كان شائعاً فى الأعمال الفنية فى بلاد ما بين النهرين .

(ب) — النموذج الخاص بطراز المراكب ذات المقدمة والمؤخرة المرتفعة ارتفاعاً كبيراً . وهو يماثل طراز المراكب المعروفة باسم «البَلَم» الذى كان شائعاً فى بلاد ما بين النهرين . وقد استند بعض العلماء من أنصار حضارة ميزوبوتاميا إلى أن ظهور هذا النموذج منقوشاً فى عمل فنى ذى طابع مصرى، يدل على أن مصر قد تعرضت قبيل عصر الأسرات مباشرة إلى غزو جاءها من بلاد ما بين النهرين . بل وتحمس هؤلاء العلماء حماساً على غير أساس، وادعوا أن الطفرة الفجائية التى طفرتها الحضارة المصرية قبيل عصر ما قبل الأسرات ترجع بصفة رئيسية إلى هذا الغزو وما صاحبه من حضارة ناضجة وافدة ! . وهو ادعاء غريب يدحضه ما أثبتته الشواهد الأثرية من أن المصريين الأوائل قد ابتكروا العديد من طرز المراكب والسفن النيلية والبحرية . وأن هذا الطراز بالذات يشبه إلى حد ما [خصوصاً من ناحية شكل المنشآت العلوية] بعض المراكب النيلية التى صنعها مصريو الوجه القبلى، الذين تراجعوا عن هذا الطراز وتحولوا إلى طرز أخرى أكثر ملاءمة وأفضل تشغيلاً وإجاراً سواء فى الملاحة النيلية أو فى الملاحة الساحلية بالبحرين الأحمر والمتوسط .

(ج) - النموذج الخاص بتصوير بعض الحيوانات الخرافية التي لا وجود لها في الطبيعة، حيث ذكر العلماء المتشيعون لحضارة ما بين النهرين أن صور مثل هذه الحيوانات الخرافية كانت شائعة في تلك الحضارة، ولم تظهر في أعمال الفنانين المصريين حتى وفدت إليهم من بلاد ما بين النهرين. وربما فات على هؤلاء العلماء أن مثل هذه الحيوانات الخرافية الشبيهة بالحيوانات التي ظهرت في بعض الأعمال الفنية في حضارة ما بين النهرين قد ظهرت في أعمال فنية مصرية الطابع كوحداث زخرفية أملتها طبيعة المساحة المتاحة لها كعنصر فنى ضمن عناصر فنية متكاملة. وأشهر نموذج لهذا التكوين الفنى المصرى الطابع هو صورة الحيوانات الخرافيين اللذين يظهران فى لوح الإردواز التذكارى للملك نعرمر [أول ملوك الأسرة الأولى فى رأى كثير من المؤرخين]. حيث يظهر كل حيوان من هذين الحيوانين الخرافيين بجسم أسد ورقبة طويلة ثعبانية ورأس فهد.

والملاحظ هنا أن عبقرية الفنانين المصريين الأوائل تجلت فى تصوير هذه الحيوانات الخرافية كتعبير من تعبيرات الخيال التى قد تخطر فى ذهن وأفكار أى فنان يعيش فى بيئة مماثلة، حيث فى الإمكان أن يتوهم وجود مثل هذه الحيوانات الخيالية التى لا يوجد لها مثيل فى حيوانات البيئة، ولكنه يتوهم أو يتخيل وجودها بتلك الصورة ليتمكن من التعبير عن الكائنات والوحوش الضارية التى كانت تخيف وترقع الإنسان والحيوانات الأخرى. ولذلك فقد سجل الفنانون المصريون الأوائل صوراً لمثل هذه الوحوش الخيالية بأجسامها القوية ورقابها الغريبة التى تشبه رقاب الزراف أو تشبه الثعابين والحيات، بل وجعلوا لبعض منها أجنحة قوية هائلة تشبه أجنحة النسور والعقبان.

هذا بالإضافة إلى ولع الفنانين المصريين الأوائل بالتعبير الرمزى الذى قد يؤدى إلى الغموض أو صعوبة فهم الموضوع الحقيقى الواقعى الذى عبر عنه الفنان بتكوين فنى يلعب فيه الرمز الدور الأول. وقد فطن بعض العلماء المنصفين ومؤرخى الفنون إلى دلالة ذلك التكوين الزخرفى الذى أبدعه الفنان المصرى باقتدار وتمكن، واستخدم فيه الحيوانات الخرافيين، فقد أظهرهما مجسمين قوين ويرفع كل منهما ذيله للتعبير عن الغضب والهياج، كما جعل رقبتيهما تلتصقان حول بعضها فى تكوين دائرى كامل الاستدارة، أعطى لوجه لوح الإردواز التذكارى قدراً كبيراً من التوازن والجمال الفنى.

كذلك نلاحظ أن الفنان المصرى أضاف إلى هذا التكوين منظراً لرجلين يقوم كل منها بجذب عنق كل حيوان بجبل قوى من جبال الصيد، كما لو كانا يريدان السيطرة على الحيوانين ومنعهما عن العراك أو التقاتل فيما بينهما. ومن المحتمل أن الرمز المقصود من هذا التكوين الفنى الزخرفى هو التعبير عن أن عهداً جديداً قد بدأ، وأن رجال هذا العهد الجديد سيطروا على جماعتين قويتين، ومنعهما من التصادم والعراك والاقتتال. وهذا التحليل يقتررب كثيراً من التعبير عن الموضوع الذى قام بتوحيد القطرين أو الأراضين وسيطر عليها معاً وأنهى بذلك عهود الصراع والاقتتال التى سادت بينها فى الماضى.

(د) — النموذج الخاص بصناعة واستخدام الأختام الأسطوانية لحتم سدادات الأوانى أو ربما لحتم الوثائق. ففى عصر الأسرتين الأولى والثانية، كثر استخدام هذه الأختام لحتم السدادات التى كانت تغلق بها الأوانى والجرار التى حفظت بها أنواع من الأطعمة أو الشراب. وكانت هذه السدادات تصنع عادة من الطين، ثم تختم بتمرير هذه الأختام الاسطوانية على الطين الطرى وتترك لتجف. وقد قيل أن استخدام هذه الأختام كان من الأمور الشائعة فى حضارة ما بين النهرين، ثم انتقلت منها إلى الحضارة المصرية.

وقد لا يكون هناك مانع من قبول القول بهذا الاحتمال. ولكن الملاحظ اختلاف شكل الأختام المصرية كلية عن شكل أختام ما بين النهرين، فقد كانت هذه الأخيرة تتكون من خطوط أو أشكال هندسية زخرفية، أما الأختام المصرية فقد كانت تتضمن عادة «كتابة» هى فى الغالب أسماء الملوك أو الأفراد أصحاب المقابر التى وجدت فيها هذه الأوانى والجرار المختومة، أو وجدت بها الأختام الاسطوانية التى استخدمت.

وجمل القول فى كل ذلك أن جميع مثل هذه النماذج والرؤى الفنية يمكن أن تنشأ وتتطور فى أحضان أية حضارة محلية من حضارات العالم القديم مهما تباعدت المسافات بين تلك الحضارات، وأن كل حضارة تتناول تلك الرؤى الفنية طبقاً لطريقتها الخاصة ولتقاليدها فى التعبير الفنى ومستواها فى الصناعة. وعلى هذا

فيمكن القول بأنه لا ضرورة للظن بأن هناك تأثيراً لازماً لحضارة بلاد ما بين النهرين على الحضارة المصرية في عصر ما قبل الأسرات أو في عصر الأسرات المبكرة.

ويرى الكثير من العلماء والمؤرخين أن ثمة علاقات قد حدثت بين الحضارة المصرية وحضارة بلاد ما بين النهرين في عصور ما قبل التاريخ. ويرى بعضهم أن هذه العلاقات قد قامت مباشرة بين الحضارتين، بينما يرى آخرون أنها قد حدثت بطريق غير مباشر حيث كانت الحضارتان تلتقيان في المناطق التي سادت فيها حضارات وسيطة في سوريا وفلسطين، وهي المناطق التي تفصل أو تصل بين مصر والعراق. وقد أدت هذه المناطق دوراً تاريخياً هائلاً في عمليات الهجرة والانتقال والمبادلات التجارية التي لم ينقطع جريانها بين شعوب غرب آسيا وشرق البحر المتوسط ومصر. وبناء على ذلك فلم يكن من المستبعد أن يتم انتقال بعض الرموز أو العناصر الفنية بين تلك الحضارات وبعضها البعض. وفي نفس الوقت، كانت تلك العناصر تمتزج بالطريقة أو الأسلوب الفني السائد في كل حضارة على حدة. وتدل جميع الشواهد الأثرية لمخلفات الأعمال الفنية التي عثر عليها أو اكتشفت في مصر والتي يرجع تاريخها إلى عصر ما قبل الأسرات على مدى تمكن الفنانين المصريين الأوائل وقدراتهم الفائقة في طبع كل العناصر الفنية بروح مصرية خالصة.

وأخيراً فإنني أتقدم بوافر الشكر للصديق الأستاذ الدكتور أحمد قدرى لتشجيعه لى على انجاز ترجمة هذا الكتب القيم، ولتفضله بمراجعة الترجمة العربية على الأصل الانجليزي وتقديمها للقارئ، ولإقتراحاته الصعبة المفيدة التي قمت بتنفيذها عسماً في أن تزيد هذا الكتاب ثراءً، وابتغاء مرضاة القارئ العربي المتطلع إلى المزيد من العلم والمعرفة، عن تلك الحضارة العالية التي صنعها أجداد الأجداد، ليتوجوا بها حضارات العالم التي عاصرتها أو سبقتها أو لحقت بها.

ولله وحده كل الفضل ومنه الهداية إلى سواء السبيل.

مختار السوفى

كورنيش النيل القاهرة - مايو ١٩٨٩.

هذا الكتاب عبارة عن توسع واستفاضة في موضوع فصل كنت قد كتبتة ضمن كتاب «فجر الحضارة» The dawn of civilization الذي صدر تحت إشراف البروفيسور ستوارت بيجوت، والذي تضمن عدة بحوث مختصرة ومركزة عن الخطوات والسبل التي سارت فيها الجماعات الإنسانية في العصور القديمة أثناء تحولها من مراحل الحياة البدائية والوحشية إلى مراحل الرقى والحضارة.

وقد اعتمدت هذه البحوث بصفة أساسية على دراسة وتحليل الآثار المادية التي تخلفت عن هذه الحضارات الإنسانية القديمة التي اكتشفها الأثريون، سواء أكانت تلك الآثار في حالة سليمة أم عثر عليها مهشمة وأعيد تركيبها بعد ترميمها وتصور الحالة التي كانت عليها.

وقد قمت بمعالجة الموضوعات التي تضمنها هذا الفصل والتوسع فيها، محاولاً بقدر الإمكان إبراز تفاصيل تلك الحضارة المتميزة التي أبدعها المصريون الأوائل وطوروها، منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد. وقد بلغت تلك الحضارة قمة ازدهارها في عصر الدولة القديمة التي بدأت بحكم الأسرة الثالثة وانتهت بنهاية حكم الأسرة السادسة.

وهذه القمة الحضارية التي وصلت إليها مصر في عصر الدولة القديمة أصبحت النموذج والمثل الأعلى الذي تحتذي به مصر في العصور اللاحقة في تاريخها القديم الطويل، وكلما عصفت فترات الفوضى بنظام الحكم فيها، أثناء عصور الاضمحلال التي كانت تفصل بين الدولة القديمة والدولة الوسطى، وبين هذه الأخيرة والدولة الحديثة، ثم بين الدولة الحديثة والعصر المتأخر.

وبالرغم من أن القمم الحضارية التي وصلت إليها مواهب المصريين القدماء فى كل من عصور الدولة الوسطى والدولة الحديثة والعصر المتأخر، والتي تأثرت فى أغلبها بتيارات أجنبية وافدة بحيث أصبح لكل حضارة منها طابع خاص تتميز به، إلا أن المصريين خلال إبداعاتهم الحضارية تلك، ظلوا يتطلعون دائماً إلى إعادة ماضيهم التليد ومثلهم الأعلى المتمثل فى النموذج الحضارى الذى وصلت إليه بلادهم فى عصر الدولة القديمة، حين كانت بلادهم موحدة ذات نظام مركزى مستقر، تحت حكم ملك واحد له صفات الإلهية والتقدیس .

وتعتمد دراساتنا للحضارة المصرية فى عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية عصر الدولة القديمة، وهى العصور التى تناولناها فى هذا الكتاب، على الآثار المادية التى تبقت لدينا من مخلفات تلك العصور، خصوصاً ما يتعلق منها بفن العمارة وفن النحت. ذلك لأن المعلومات المسجلة كتابة عن تلك الحضارة تعتبر قليلة ونادرة، خصوصاً بالنسبة للمعلومات المكتوبة التى تتناول عصر الأسرتين الأولى والثانية، فهى تتصف إلى جانب ندرتها بالايجاز الشديد وبقدر كبير من الإبهام والغموض .

وحتى بالنسبة للمعلومات المكتوبة عن عصرى الأسرتين الخامسة والسادسة، حين أصبحت الكتابة على جدران المعابد والمقابر أمراً شائعاً، فقد كان أغلب تلك الكتابات تتناول تسجيل قصة الحياة الشخصية لصاحب المقبرة أكثر مما تسجل المعلومات التى تتناول الجانب التاريخى أو السياسى للفترة أو العصر الذى عاش فيه صاحب المقبرة، فيما عدا بعض الاشارات القليلة النادرة التى نستطيع أن نستشف منها الإشارة إلى مثل تلك الأمور.

وعلى سبيل المثال فهناك تسجيل كتابى مفصل وشامل محفور على جدران مقبرة «وينى» الذى عاش فى عصر الأسرة السادسة، يتناول أحداث وقائع حياته وألقابه ومركزه الاجتماعى والأعمال التى قام بها أثناء حياته خدمة للملك ونظام الدولة، كما أن هناك مجرد إشارات عابرة عن بعض الوقائع والأحداث ذات الدلالة السياسية التى وقعت فى داخل البلاد أو فى خارجها، نستطيع أن نستشف منها الكثير من المعلومات عن طريق الحدس والتخمين أكثر مما نعرفه منها بالطريق المباشر.

أما إذا اعتمدنا فقط على المدونات المكتوبة عن تاريخ الدولة القديمة في مصر، فسوف نجد أنفسنا مقيدين بما ورد في الكتابات القليلة النادرة التي دوّنت في بعض قوائم أسماء الملوك التي وجدت منقوشة على أحجار مهشمة أو غير كاملة، وعلى بعض الصلوات الجنائزية والأدعية الدينية، وبعض بقايا صفحات من كتب الحكمة والتعاليم الأخلاقية التي تنسب إلى حكماء عاشوا في عصر الدولة القديمة ولكن أقوالهم وتعاليمهم سجلت كتابة في عصور لاحقة.

وتعتبر نصوص أو متون الأهرام، أهم ميراث مكتوب يعود تاريخه إلى عصر الدولة القديمة. وهي عبارة عن خلاصة وافية لطقوس وصلوات جنائزية وكتابات دينية وعقائدية كتبت باللغة القديمة للتعبير عن بعض المعتقدات الدينية التي يرجع تاريخ بعضها إلى عصور ما قبل التاريخ، بالإضافة إلى المعتقدات الدينية الأكثر تقدماً التي كانت سائدة في عصر الأسرتين الخامسة والسادسة. وكان الهدف الأساسي من كتابات متون الأهرام، هو تعريف الآلهة وخصوصاً إله الشمس رع بالملك المتوفى.

وربما كان من العسير على الإنسان المعاصر — حتى ولو قدمنا إليه ترجمة أمينة لتلك النصوص أو المتون الغامضة — أن يدرك أو يتفهم الإطار العقلي أو الطابع العقائدي للمعاني والأفكار التي تتضمنها هذه النصوص الدينية، خصوصاً ونحن لم ندرك بعد طبيعة وخصائص الصياغة الشعرية التي صيغت بها تلك النصوص، أو نعرف الشيء الكثير عن جوهر وخفايا أسلوبها في التعبير عن مضامينها الروحية أو العاطفية.

وعلى العكس من ذلك، فقد يكون من السهل أن نحس بمثل هذه المضامين استلهاماً من التعبير الفني لقدماء المصريين فيما خلفوه لنا من أعمال النحت والمنشآت المعمارية، ذلك لأن دراسة هذه الآثار تساعدنا كثيراً في الوصول إلى معرفة تكاد أن تكون يقينية بطبيعة الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في مصر القديمة.

وهناك ثروة طائلة من الكنوز الأثرية التي يعود تاريخها إلى عصر الدولة القديمة، كما أن هذه الكنوز تزداد باستمرار بما تسفر عنه الكشوف الأثرية التي تجرى كل عام.

وكان المحتم أن يتم الاختيار للصور الفوتوجرافية لهذه الآثار التي أوردناها في هذا الكتاب. وبطبيعة الحال فقد كان اختياراً وانتقاءً صعباً، حين دعت الضرورة إلى استبعاد صور بعض الآثار والقطع الفنية المميزة الرائعة التي يرجع تاريخها إلى ذلك العصر.

وعلى أية حال فقد أثبتنا قائمة بالمراجع الممتازة التي تتناول ما تحدثنا عنه في هذا الكتاب بكثير من التفصيل حتى يلجأ إليها من يرغب في الاستزادة.

وختاماً، أقدم وافر الشكر للمستر والتر نيوراث لتشجيعي في اخراج هذا الكتاب في شكله الجديد، كما أقدم شكري أيضاً للمستر بيتر كلايتون لمساعدته واقتراحاته المفيدة. وللقارئ الحكم النهائي في تقدير ما بذلته من مجهود.

سيريل ألدريد

التسلسل الزمني لعصور ما قبل التاريخ حتى نهاية عصر الدولة القديمة

حوالى عام ٢٨٠ ق.م، قام الكاهن المصرى «مانيتون» بتصنيف مجموعة من المدونات والتسجيلات التى كتبت فى العصور السابقة، ورتب فيها أسماء الملوك الذين حكموا مصر وفترات حكمهم، وقسمهم إلى (٣١) أسرة ملكية. ومازال هذا التقسيم الذى وضعه «مانيتون» معتمداً عليه حتى الآن، لدرجة أن علماء المصريات والتاريخ المصرى القديم لم يُدخلوا عليه تعديلاً سوى قيامهم بتقسيم فترات حكم هذه الاسرات الملكية إلى عصور مستقلة كعصر الدولة القديمة وعصر الدولة الوسطى وعصر الدولة الحديثة. واعتبروا الفترات الفاصلة بين هذه العصور فترات اضمحلال واضطرابات سياسية.

كذلك فقد قام المؤرخون وعلماء المصريات بتقسيم فترات ما قبل التاريخ إلى عصور مستقلة اطلقوا عليها أسماء الأماكن والمواقع المصرية التى عثر فيها على تلك الآثار التى تميز بها كل عصر من هذه العصور. وتُجرى الآن مزيد من البحوث العملية لتحديد تاريخ وأعمار تلك الآثار بالكربون - ١٤ المشع.

ونبين فيما يلى التسلسل الزمني لعصور ما قبل التاريخ والعصر العتيق الذى يتضمن الأسرتين الأولى والثانية، وعصر الدولة القديمة الذى يبدأ ببداية الأسرة الثالثة وينتهى بسقوط هذه الدولة.

• عصور ما قبل التاريخ :

المواقع الرئيسية	الحضارة		العصر	السنة ق.م
منخفض الفيوم دير تاسا مستجدة	الوجه القبلى — تاسا	الوجه البحرى الفيوم	الحجرى الحديث	٥٠٠٠
البيدارى مرمده بنى سلامة العمرة البلاص حو أبيدوس المحاسنة	البيدارى — العمرة	— مرمده	عصر النحاس ما قبل الأسرات القديم	٤٠٠٠
نقادة المعادي	جزرة الأولى —	— المعادي	ما قبل الأسرات الأوسط	٣٦٠٠
الجزرة حراجة	جزرة الثانية		ما قبل الأسرات الحديث	٣٤٠٠
<p>فى هذه الفترة تم توحيد الوجهين البحرى والقبلى فى دولة واحدة وتحت حكم ملك واحد. وتعتبر هذه الفترة بداية العصر التاريخى وأهم مواقع الاكتشافات الأثرية فى: هيراكونبوليس، منف، سقارة، الجيزة، أبيدوس.</p>				٣٢٠٠

● العصر العتيق :

* الأسرة الأولى: ٣٢٠٠ - ٢٩٠٠ ق م

اسم الملك	عدد سنوات حكمه
— نَعْرَمَر [مينا]	
— حُور عَا حَا	
— دچر	٤٠ +
— دچت	٣٠ +
— عِيندچيب	
— سمر-خت	٩
— كَا-عَا	٣٣ «؟»

* الأسرة الثانية: ٢٩٠٠ - ٢٧٠٠ ق م

— جِتَب سِيخْمَوِي	
— رَع نِب	
— نِي نِتْر	٣٨
— بَر اِيْب سِن	
— خَع سِيخْم	
— خَع سِيخْمَوِي	١٧

● الدولة القديمة :

* الأسرة الثالثة: ٢٧٠٠ - ٢٦١٥ ق م

— سَانَحْت	
— زوسر	١٩
— سِيخْم خِت	٦
— خَابَا	
— حُونِي	٢٤

* الأسرة الرابعة: ٢٦١٥ - ٢٥٠٠ ق م

- ٢٤ - سِنْفَرُو
- ٢٣ - حُوفُو
- ٨ - جِدِدِف رَع
- ٣٠ - ٢٥ - خَفَرَع
- ٢٨ - ٢١ - مِتْكَاوَرَع
- شِبْنِس كَاف ٥

* الأسرة الخامسة: ٢٥٠٠ - ٢٣٥٠ ق م

- ٧ - وِسْر كَاف
- ١٤ - سَاحورَع
- ٧ - نِفْرُز كَارَع [كَاكَاي]
- ٧ - شِبْنِس كَارَع [إِبْسِي]
- ٤ «؟» - نِفْرُز إِف رَع
- ٣١ - نَبِي وِسْر رَع
- ٨ - مِتْكَاوُ حُوْر [أَكَاوُ حُوْر]
- ٣٩ «؟» - جِد كَارَع [إِبْسِي]
- ٣٠ - أَوْنَس [وِنِس]

* الأسرة السادسة: ٢٣٥٠ - ٢١٨٠ ق م

- ١٢ - تَيْتِي
- ٤٩ - مِرِي رَع [بِيْبِي الأُوْل]
- ١٤ - مِرِي إِن رَع [أَنْتِي إِم سَاف]
- ٩٤ «؟» - نِفْرُز كَارَع [بِيْبِي الثَّانِي]

* الأُسْرَتَان السَّابِعَةُ وَالثَّامِنَةُ: ٢١٨٠ - ٢١٦٠ ق م
 - عِدَّة مَلُوْكَ كَانُوْا يَحْكُمُوْنَ لِفَتْرَاتٍ قَصِيْرَةً جَدًّا.

* نِهَآيَةٌ وَسُقُوْطُ الدَّوْلَةِ الْقَدِيْمَةِ ٢١٦٠ ق م